فلسطين في الأدب الجزائري الحديث (الشعر)

يعدّ **عمر راسم** (1883–1959) من أوائل الجزائريين الذين اهتموا بالقضية الفلسطينية بوعي فريد من نوعه من خلال ما نشره – قبل وعد بلفور – في سنة 1909 فقد شن حملة كبيرة على اليهود والصهيونية وكشف مخططاتهم ودسائسهم، واهتم بالخصوص بفلسطين تحت عنوان استعمار فلسطين (*كمال عجالي، فلسطين في النثر الجزائري الحديث، مجلة العلوم الانسانية، جامعة بسكرة، 2005 عدد 7*) يقول: "*أهمية استعمار فلسطين التي غفلوا عنها لا يجهلها إلا غبي بليد ولم يقاومها إلا نذل جبان عنيد؛ لأن غايتها تأليف سلطة يهودية في فلسطين تسعى إليها اليهود من وراء حجاب من السياسة الاقتصادية التي يحاولون بواسطتها الوصول إلى ضالتهم المنشودة (صهيون). وقد ألفوا لذلك جمعيات وعقدوا مؤتمرات في عواصم أوروبا وأفرغوا كل ما في وسعهم إلى ما هم إليه متجهون، ولا شك إذا دام الحال على ما هو عليه أنهم سيفوزون وينالون ما يشتهون*" (*نقلا عن كمال عجالي، م.س*). ومن الغريب حقا أن ينتبه جزائري في سنة 1909 إلى استراتيجية الصهاينة ويتنبأ بنجاحهم بسنوات.

فعمق الروابط بين الشعبين، ومكانة (القدس) في عقيدة وضمير الجزائريين، وتطابق الحالتين في مأساة الاحتلال وتضحيات المقاومة، وكذلك تطور الصراع الفلسطيني الصهيوني جعلها قضية الشعب الجزائري ونخبته وسياسييه وأدبائه منذ فترة ما قبل الثورة، فهي "*أهم قضية عربية احتفى بها الأدب الجزائري... فقد نوه بها الكتاب في الصحافة الوطنية، وتغنى الشعراء بها في مناسبات متعددة مما جعلها شغل الرأي العام.. كما خصصت الصحافة الافتتاحيات الضافية والأبواب الدائمة لدراسة طبيعة فلسطين وأهميتها التاريخية والقومية للعرب*" (*سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 108*). من هنا، فإننا لا نكاد نعثر على كاتب أو شاعر جزائري لم يتعرض للمأساة الفلسطينية ويهاجم المحتل الصهيوني. ورغم الدراسات والأبحاث التي أنجزت حول الموضوع، إلا أنه ما زال بحاجة إلى جهود معتبرة لتعميقه.

إن اهتمام الجزائريين بالقضية كان مبكرا، فقد كتب **السعيد الزاهري** سنة 1927 بسبب جمع يهود الجزائر للأموال لصالح الصهيونية: "***إن استعمار فلسطين هو ظلم كسائر الاستعمار***، *ولذلك لا نرضى أن تكون تلك الأموال التي اختلسوها منا ومن غيرنا بالربا وبالوجوه المعلومة لبقاء ملكهم ونفوذ سياستهم على المسلمين، أهالي البلاد الحقيقيين، فليتأمل (ناطان بيرن) وليتأمل (هنري وشارل أبو الخير)، وليتأمل (كيرون) وليتأمل (شبيب بن سيمون) كاتب الشبيبة الاشتراكية وليتأمل (الروتشيلد) نفسه، وليعلموا أن فلسطين أرض عربية إسلامية، وإن أموالنا وأرواحنا التي أزهقت في الحروب الأخيرة لا تذهب وراء سعي المرابين*" (*نقلا عن: عبد المجيد بن عدة، أطروحته: الخطاب النهضوي في الجزائر، ص:*

536). وهذا النص مهم؛ لأنه يكشف المساحة الكبيرة التي كانت الصهيونية تتحرك فيها، من أجل دعم قضيتها، كما يكشف كذلك وعي النخبة الجزائرية بوحدة الاستعمار **فلا فرق في الجوهر بين الاحتلال الفرنسي للجزائر والاحتلال الصهيوني لفلسطين**، ولهذا فإن الجزائري يرفض احتلال فلسطين أو أية دولة أخرى، إضافة إلى أن **الجزائري كان منتبها دائما لدسائس اليهود منذ زمن طويل**؛ أي منذ القرن الخامس عشر على الأقل، في كتابات ومعارك عبد الكريم المغيلي (1425-1504) في إقليم توات جنوب الجزائر، وكذلك في دورهم في احتلال الجزائر (شركة بوشناق وبكري) (*ينظر مذكرة ماجستير: الدور الدبلوماسي ليهود الجزائر في أواخر عهد الدايات، بن طالب كمال، جامعة معسكر، 2008*). وسيقول **محمد العيد آل خليفة** فيما بعد سنة 1948 مخاطبا فلسطين (*الديوان، ص: 334*):

بُلِيتِ بهمْ صَهاينَــة جِيَـــــيَاعًا فَسُحْـقًا للصهاينـــــة الجِيَـــــاع
.. وَكَيفَ يُصادِفُ العِبرِيُّ نُـجْـحًا وما أخـلاقُهُ غَيْــرُ الخِـــــــداعِ
قَدِ اشْتَـهرَ اليهــودُ بكُلِّ قُـــطْرٍ بِـأَنَّ طِبَاعهم شَـــرُّ الطِّبَـــــاعِ

ومع تطور الأحداث، تزايد اهتمام ونشاط ودعم الجزائريين للقضية، فقد رفع العلماء باسم الجزائريين بيانا ضد تدنيس حائط الأقصى إلى السلطات الفرنسية يطالبونها بالاحتجاج (*الشهاب، أكتوبر 1929 ص: 39*)، وتابعت الجريدة مقاطعة العرب الاقتصادية لليهود في فلسطين (*الشهاب، نوفمبر 1929 ص: 44*)، كما دعا الجزائريون (كسعيد الزاهري وعلي مرحوم) لدعم الفلسطينيين بالأفعال وليس بالأقوال فقط، وغيرها كثير.. ونشرت الشهاب في جانفي 1930 (من ص: 24) مقالا مطولا نقلته عن صحيفة (العرفان) للمؤرخ العراقي عبد الرزاق الحسيني (1903-1997)، تحت عنوان: الصهيونية- ماضيها، حاضرها، مستقبلها (*ينظر: عبد المجيد بن عدة، م س، ص: 537*). وفي ديسمبر 1931 حضر **إبراهيم اطفيش** (1888-1965) المؤتمر الاسلامي في القدس مدعوا وكان له الفضل في إزالة خلاف حدث وقال قولته: "*إن المؤتمر جاء ليجمع الأمة الاسلامية ويعمل لقضية الأمة لا ليفرق وحدتها، ويكفينا أننا جئنا لقضية وهي الوقوف أمام عدو واحد يسعى لتمزيق هذه الأمة* ***بل الأدهى ان اليهود يطمعون فينا معشر المسلمين..*** *وإننا نتمنى أن يكون هذا المؤتمر هو المجدد لوحدة المسلمين أمام الخطر الداهم الذي جعل حتى اليهود يسخرون منا والاستعمار يعبث كما يشاء بهذه الأمة المحمية*". (*محمد ناصر: الشيخ ابراهيم أطفيش في جهاده الاسلامي، ص:54*).

لقد واكب الأدب الجزائري القضية الفلسطينية وتطرق إلى مختلف الموضوعات المتصلة بها وفي أشكال مختلفة من شعر ومقال ومسرح وغيرها. ومن ذلك أن الشهاب نشرت (*الشهاب، ج11، مج 6، ديسمبر 1929 ص: 687*) قصيدة طويلة لشاعر مبتدىء شاب يتحسر على القدس ويرثي لها، منها:

.. و(فَلْسَطين) تَئِنُّ وهيَ شاكيـةٌ مِن حَرِّ فتنـةِ أهْــوالٍ تُقاسيهــا
إِذْ ما أرادَ بها (بلفُــور) كارثَــةً شَـعواءَ تُدمِي كُلُــومَ القلبِ تفريـها
.. أمَّا الجزائرُ فَهيَ مِنْ مُصابِكمُ في حَرِّ نارِ الأسَى تَشْكُو لِبَارِيــهَا

فإنْ عَـدِمتُم شُخُـــوصَنا فإنَّ ضميـــــــــرَنا لَكُم في لَظى دَهْـيا يُعانيهــا

وهي قصيدة مبتديء (وقعها باسم: تلميذ جزائري)؛ إذ يختل فيها الوزن مرارا، لكنها تعبر بوضوح واندفاع عن تأثر الجزائريين ودعمهم. لكن **محمد العيد آل خليفة** كتب سنة 1936 بمناسبة ثورة الفلسطينين ضد الانتداب البريطاني ومنح البريطانيين لليهود حق تملك فلسطين (*الديوان ص: 374*):

بَنَي (التَّايْميز) قَد جُـرْتُـمْ كَثيرًا فهَلْ لكُـمُ عنِ الجَــوْرِ ازْدِجَـــارُ
أَفِـي أَسْواقِكـمْ نَصْـبًا وغَصْـبًا تَسُــومُ (القِبْلَـةَ) الأُولَى التِّجَــارُ
إخَـالُ (القِبلَة) انْسَجَرَتْ دمـاءً كما للبحْـر باللُّجَـجِ انْسِجَـــــارُ
تَشَــاجَرَتِ العُمومَةُ في ذَراهَــا ولَوْلاكُم لَما وَقَـعَ الشِّجَـــــــارُ
غَدَا العِبْــرِيُّ للعربِـيِّ خَــصمًا بِـــها، وكِلاهُما لأخيـه جَـــارُ
تَـــرَوْنَ لَها سِوى العَرَبِـيِّ أَهْـلاً وتَأْبَـى التُّـرْبُ فِيــهَا والْحِجَـارُ
فَلَيــسَ لَهَا بِلاَ فَمِـــهِ لِسَـــانٌ وَلَيْــسَ لَهَا بِلاَ دَمِـــهِ نِجَـــارُ
أَلَـمْ يُؤْلِمْـــكُمُ حَـــرَمٌ مُبَـــاحٌ وشَعْـــبٌ يَسْتجِيـــرُ ولا يُجـارُ
.. إِذَنْ فالحَـــرْبُ لِلْعَربِّـــي دَأْبٌ وَهَلْ تَخْفَى (الْبَسُوسُ) أو (الْفِجارُ)
شَـدَدْتُـــمْ قَهْـرَهُ فَعَلاَ انْفِجَـــارًا وعُقْبَـــى شِـــدَّةِ القَهْرِ انْفِجـارُ

وقد ركز الشاعر على جوهر القضية الموزع على محورين؛ الأول حق العرب التاريخي في فلسطين، والثاني حتمية المقاومة واستعداد العربي دائما لها. فصاحب المؤامرة الحقيقي والذي يتحكم فيها إنما هو الغرب المستعمر الذي يمثله هنا البريطانيون ولهذا يوجه الخطاب إليهم وليس لذئاب الصهاينة، واستطاع أن يجسد مكرهم في صورة سوق كبيرة تعرض فيه القدس للبيع أمام التجار فأشعلوا النار بالقدس بين أبناء العم؛ العبري والعربي، وكانوا إخوة وجيرانا منذ قرون. هذه سوق بنيت على النصب والغصب؛ لأن دم فلسطين كان دائما عربيا ولغتها كذلك، وكل ذلك يخفي أغراض الغرب الاستعماري الحقيقية والذي لا يعبأ في سبيلها بالآلام أو الصراخ أو المحرمات. وهنا يأتي المحور الثاني، وهو ناتج عن تعنت الغرب وعدم قبوله الحجة وعدم اهتمامه بالمآسي، والمقصود أن نتيجة كل هذا القهر إنما هو الانفجار والحرب، والعربي معروف منذ تاريخه القديم بالحروب الضروس المدمرة.

لقد كانت فكرة تقسيم فلسطين رمزا لاحتيال الغرب وسلب الحقوق، ولهذا يعود إليها الشاعر في سنة 1937 ليكتب (*الديوان ص: 314*):

يا قِسْمَـةَ القدسِ أَنـتِ ضِيــزَى لم يَعْـــــدِلِ القاسِمـــــونَ فِيـكِ
مَضَــوْا عَلى الحَيْـفِ لَمْ يُبـالُوا بِمَـا جَـــرَى مِـنْ دَمٍ سَفيـــــكِ
القُــدْسُ لِلْعُـرْبِ مِـنْ زمـــانٍ لَـنْ يَقْبَلُـــــوا فيــهِ مِنْ شريــكِ

قَدْ سَامَــهُ الأجْنَبــيُّ خَسْــفًا وَهَــــدَّ مِنْ رُكْنِـــــهِ السَّمِيــكِ
يَا (لُنْــدُرَا) لَوْ دَرَى بَنُـــونَا لَـمْ يَأْمَنُوا الغَـدْرَ مِن بَـنِيـــكِ
إخَـالُ شَـعـبَ اليهـــودِ سِـــرًّا سَـبَــاكِ بالعَـسْـجَدِ السَّبِيـــــكِ
أَهَـكَــذا تَفصـــــلُ القضـايا بِحُكْمِــها لَجنَــةُ المَلِيـــــــكِ؟
قَـدْ دَلَّ طُغيَـــانُ أَنكِلِتْـــرا عَلَى فَـنَــاءٍ لَــها وَشِيـــــك

لا يتناقض محمد العيد إذن بل تستمر فكرته وفق النظام الفكري في النص السابق، ويعود إلى تقسيم فلسطين، لكن الفكرة تمتد إلى ظلم الانسان وجوره حين يميل عن الحق ويعتدي على قواعد المنطق والتفكير السليم (كما جعل لنفسه الذكر ولله الأنثى). ولهذا ينقل الخطاب هنا ليكون عاما وإنسانيا إلا في جزء منه، وينطبق على الاصرار على التقسيم رغم جوره ورغم الدماء التي سالت وكل هذا بسبب الأجنبي المحتل. إذن فالمشكلة تعود مرة أخرى إلى بريطانيا (ولهذا ينتقل إليها الخطاب) التي غدرت بالشعب الفلسطيني وباعت فلسطين لليهود سرا، وليست اللجنة الملكية (إيرل بيل) إلا فصلا آخر من مخطط أكبر. ولأن الاستعمار لا يهتم، فإن الشاعر يعود إلى الخطاب العام، ويختم النص بمحتوى مطلق (طغيان إنجلترا دليل على قرب فنائها).

وفي السنة نفسها (1937)، ألقى قصيدة مطولة (*ستوح شعرك- الديوان ص: 147*)، يطلب من الجزائر إغاثة القدس ورفض التقسيم:

هَلَّا أَغَثْــتِ القُــدسَ مِنكِ بلَفْتَــةٍ غَيْـرَى على شَعــبٍ هناكَ مُرَوَّعِ
القِبلَـــةُ الأولى تَضِــجُّ وتَشتَــكي مِن قِسمَــة المُستَــأثِر المُستَنفِـع
ضُـمّي احْتِجَاجَـكِ لِاحْتجَاج حُمَاتِها واسْتَكِــري تقسيـمَهُ واسْتَفظِعِـي
اِيــهِ فلسطيـــنُ الشقِيقَــةُ لا تَنِــي عَن ردِّ عُدوانِ اليهـودِ الأَشْنَـــعِ
وَيْـحَ القلوبِ فكُـــلُّ قلبٍ شاعـرٍ، مُتقَـــطِّع لأَنـينِـــكِ المُتقَــطعِ
وَيْـحَ العدالةِ والســـلامِ فَــلاَ أرَى غَيْـرَ العدالةِ والسلامِ بمُوجَـــــعِ

وهنا يتوجه الخطاب إلى الشعب الجزائري، ويطالبه بالالتفات إلى القدس، حيث شعب مسلم روع يصيح من المأساة ويرفض تقسيم وطنه. إن الجزائر محتلة هي الأخرى تشتكي وتناضل من أجل استقلالها لكن ذلك في نظر الشاعر لا يعفيها من المسؤولية التاريخية ومن التزامها نحو فلسطين، فعليها أن تسمع صوتها كجزء من الأمة معني بما يعانيه إخوانه فترفض وتستنكر الاعتداءات والخطط المدبرة ضد فلسطين. وبالفعل، تحولت مساهمة الجزائريين في دعم إخوانهم الفلسطينيين إلى موضوع يتردد في كتابات المفكرين والأدباء، بل لقد شكل الاصلاحيون وحزب الشعب

سنوات 1936 إلى 1938 لجانا لجمع الدعم المادي في الجزائر وفروعها بفرنسا وكذلك للاحتجاج (: *عبد المجيد بن عدة: م.س، ص: 540*).

لقد عبر الشاعر الشاب (المبتدىء) في قصيدته السابقة عن معنى مهم تداوله بعض الشعراء وهو إحساس الجزائريين بالحياء والحرج لعدم تمكنهم من المشاركة (بشخوصهم) إلى جانب الفلسطينيين في مقاومتهم، وهو ذات المعنى الذي عبر عنه **محمد جريدي** حين قال (*صالح خرفي: الجزائر والأصالة الثورية، ص: 50*):

فلسْطينُ إنّي الابْـنُ والابنُ طائِعُ ... فَـهَا أَنَذَا أَعْصي، فَهَلْ فيكِ غُفْرانُ؟
فَـإِنَّ صُدُودِي عنْ حِمَاكِ جِنَايَـةٌ ... وَإِنَّ قُعُـودِي عنْ فِـدَاكِ لَعِصْيانُ
فلسْطينُ لا تَـأْسَىْ لِغَيْبِي فَإِنَّـني ... وَإن غِبْتُ بِالحِرْمانِ مِنْـكَ لَأَسْيَـانُ
وَإِنْ فَقَـدَتْ رِجْلي رَكَائِـبَ لِلْفِـدَا ... فَلَيْسَ لإِحْسَاسِي وشِعْـريَ فقْـدانُ
فَإِنَّا إِذَا رُمْـــنَا لِأَرْضِكِ سَفْـرةً ... يُعارِضُنَا بِالْمَنْـــعِ والرَّدْعِ طُغْيـانُ
وإِنْ رامَ صُهيــونُ لِغَـزْوكِ هِجْـرةً ... تُفَتَّــحْ لَهُمْ في الْجَوِّ والْبَــرِّ بِيبَانُ
فَها هُـوَ إِيمَانِي فِــداكِ ونَخْـوَتي ... فَمَاذَا عَسَى يُجْدِيــهمُ فِيكِ حِرْمــانُ
وَهَمُّــكِ هَمِّــي يَا فَلسْطِينُ فاصْبِري ... فَإِنَّ اهْتِيـاجَ الْمَـوْجِ تُفْنِيــهِ شُطْــآنُ

وهذا نص متميز بين الشعر الداعم للثورة الفلسطينية، فكل القصيدة اعتذار لفلسطين عن عدم السفر للمشاركة في المقاومة، فالشاعر الشاب السابق اعتذر لفلسطين بأن الضمائر في الجزائر تحترق لمصابهم وعدم القدرة على المشاركة، لكن جريدي يعمق الفكرة فيوجه الخطاب إلى فلسطين انطلاقا من علاقة الأمومة، فهو ابنها الطائع لكنه الآن قد عصاها وصد عنها وقعد عن فدائها، ولذا يلتمس الغفران. إن العلاقة بفلسطين هي علاقة مقدسة، وهو ما صورته عدة قصائد لطبيعة القدس وموقعها كحرم ومسرى وقبلة أولى، ولهذا فإن عدم نجدتها هو تخلّ عن واجب ديني مقدس أو ركن إيماني (فَها هُوَ إِيمَانِي فِــداكِ) كما يقول فيما بعد، ولهذا السبب كانت القصيدة كلها تعبيرا عن ألم دفين جراء الاحساس بذنب ما اعتبره (عصيانا وصدودا) بل وقعودا عن النصرة فالله تعالى يقول: (*لَا يَستوِي القَاعِدونَ مِنَ المُؤمنينَ غَيرُ أُولِي الضَّرَرِ والمُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ بِأَموالِهِم وأَنفُسِهِم، وفَضَّل اللهُ المُجاهِدينَ عَلَى القَاعِدينَ أَجْراً عَظيماً*) (*سورة النساء، الآية 95*). هذه هي الفكرة المركزية في النص، وهي تؤرقه وتلح عليه كما الشعب الجزائري كله، ولهذا يعود ليتوجه إلى فلسطين مرة أخرى، ليرجو منها ألا تحزن بسبب غيابه فهو غائب بجسمه حاضر بروحه وشعره، ولعمق الحرج نراه يبرر الغياب، فهو لا يستطيع السفر إذ تمنعه آلة القمع والطغيان الاستعمارية والتي تشجع سفر الصهاينة لغزو القدس وتفتح لهم الأبواب، وفلم يبق إذن إلا الصبر.

وهكذا استطاع الشاعر أن يشبك القضيتين مرة أخرى، وكما التقت مآسي العالم العربي الاسمي وتساوقت، فإن الاستعمار الغربي التقى هو الآخر في الروح نفسها والمخططات ذاتها بل والتنسيق المشترك.

لقد استمر حضور فلسطين في شعر ما قبل الثورة بقوة، **فمحمد العيد آل خليفة** نشر في جريدة البصائر سنة 1948 (*الديوان، ص: 330*) قصيدة منها حول فلسطين:

قُلْ لابْنِ صُهْيونَ اغْتَرَرْتَ فَلا تَجُرْ ... إنَّ ابْـنَ يَعْـرُبَ نـاهِـضٌ لِلثَّـــارِ
أعْرَضْتَ عنْ خُطَطِ السَّلاَمِ مُولِّـيًا ... فَوَقَعْـتَ مِنْهَا في خُطُـوطِ النَّـــارِ
لا تَحْسبَـــنَّ بِأنَّ صُبْحَـكَ طالِـعٌ ... فالبَـــدْرُ وَيْحَـــكَ خَـادِعٌ للسَّـارِي
سَتَـــرَى أمانِيـــكَ التي شَيّـــدْتَهَا ... مُنْهـارةً مَعْ رُكْنِـــــكَ الْمُنْهَـارِ
القُـدْسِ لِابْـنِ القُـدْسِ لاَ لِمُشَـرَّدِ ... مُتَصَهْيِـــنٍ ومُهَاجِـــرٍ غَـدَّارِ

وقد ترك **مفدي زكرياء** عدة قصائد ملتهبة بالحماس والقوة، وقد يكون من أبرزها قصيدته المطولة الحوارية (فلسطين على الصليب) (*اللهب المقدس، ص: 336*)، وفيها أربعة مقاطع صيغت في شكل حوار بين الشاعر وفلسطين والعرب، ويبدأ صوت الشاعر، فيقول:

أُنادِيـكِ، في الصَّرْصَرِ العاتِيَـهْ ... وبَيْـنَ قَواصِـفِـها الذّارِيَـــــهْ
وأَدْعُـــوكِ، بَيْـنَ أَزيـزِ الوَغَى ... وبَيْـنَ جَماجِمِـها الجاثِيَـــهْ
.. فلسْطِينُ.. يا مَهبـطَ الأنْبيـا ... ويا قِبْلَـــةَ العَـــرَبِ الثانِيَـــهْ
ويا حُجَّـــةَ اللهِ في أرْضِـــــه ... ويا هِبَـــــة الأزَلِ، السامِيَـــهْ
.. فلسطينُ.. والعُـرْبُ في سُكْـرَةٍ ... قَـدِ انْحَـــدَرُوا بِكِ لِلهاوِيَـــهْ!
.. وحَـطَّ ابنُ (صهيونَ) أنْذَالَـــهُ ... بِأَرْضِـــــكِ، آمِـــرةً ناهِيَـــهْ
.. فَيا لَكِ مِن مَعبَـــدٍ نَـجَّسُـــــوا ... حَـناياهُ بالسّـــوْأَةِ البَـادِيَـــهْ
ويا لَكِ مِن قِبْلَةٍ كَـــدَّسُـــــوا ... بِمِحْـــرَابها الجِيَفَ البَـالِيَـــهْ!

وهو صوت مفدي الثوري المندفع لم يتغير، ينطلق النداء إلى البعيد ويكرره ويلح كأن الصوت لا يسمع في العواصف وهول المآسي، لكنه يستمر وينادي الصورة المقدسة والسامية لفلسطين في داخله وفي التاريخ والعقيدة (ولنتذكر أنها نفس الصورة التي صنعها للجزائر في قصائد أخرى كالالياذة)، ويحاكم من أوصل فلسطين لهذه الحال، فأهلها العرب هم من أضاعوها في غيبتهم عن وعيهم، وتركوها للصهاينة يدنسونها.

ثم ينقل الشاعر صوت فلسطين وهي تجيبه، فتقول:

أَيَـا شاعـرَ العُـرْبِ ذَكّرْتَـنِي وهِجْـــتَ جِراحاتي الدَّاميَـــة
.. ورُحْـــتُ أُبَـاع وأُشْـرَى كَـما تُبـــاع لجَـزَّارِها الماشيَـــه
.. وفي سَكْـــرَةٍ ضَيَّعُـــوا عِزتي ولمْ يُـغْنِ عَنّـــيَ سُلطانيَـه
فَلَا أنَـا حَقَّقتُـها بِيَـــدي ولا سَـــلَّح العـــرْبُ أبنائيَـــه
وزَوَّدنِـي العـــرْبُ بالصَّلـوات وبالشِّعـــرِ.. والخُطَـــب النَّاريَـــه
وماذا عسَـاهُ يُفيـــدُ الكلامُ وما سَـــوف تَصنعُـــه القافيَـــه؟
.. هو الشعبُ..لا السَّادة المُترَفُـون يُحقِّـــق للنصر، أحلاميَـــه
ومَنْ يَحتَـقِـر وَثَبَـاتِ الشعوبِ تُـــذِبْه، أعاصيـرُها السافيَـه
(إذا جاء موسَـــى، وألقَى العَـصا) تَـلَـقَّـفُ ما يَـأفِـكُ الطاغيَـــه

وهي أفكار الشاعر يطورها من خلال حديث متخيل لفلسطين. والحقيقة أنه يجعلها تتكلم، لأن صوته أو حديثه سيكرس انفصال المتلقي (وبالخصوص المسؤولين أهل الشأن) ويبقي رأيه في مستوى الانطباع الشخصي أو الرأي، بينما سيصدم المستمع حينما يجعله يستمع إلى المعنية دون وساطة أو حاجز. ولكن ماذا تقول فلسطين؟ لقد اختصرت قصتها، لقد وثقت في العرب فأضاعوها في غفلتهم، وتركت في السوق كالماشية، فما دافعوا عنها، ولا سلحوا أبناءها ليقاوموا، بل خاضوا معركة بلاغية لا تفيد؛ وهي في ذهن الشاعر قصة النضال السياسي قبل الثورة والذي لم يبلغ الهدف. وهنا يترابط نظام مفدي الفكري، فتبرز فكرة شعبية الثورة (وهو الذي يهيمن عليه النموذج الجزائري)، فيجعل فلسطين تكتشف أن الشعب هو المحرر وليس السادة المترفون، فإذا تحرك الشعب كالاعصار فإنه يحقق النصر.

ولكن العربي يتكلم في المقطع الثالث، فيقول:

وقال ابنُ يَعْرُبَ، لمـا تَيَقَّـظَ: لَـمْ أَدْرِ – مِـنْ سَـكْرَتي – ماهيـــه؟
.. وفَوَّضْـتُ أمـريَ، للحاكميـن فَضَيَّـــعَ قُدْسِـــيَ، حُكَّاميَـــه
.. وهل يُرتَجَى العَونُ، مِن مَعشَرٍ: قَـــواعدَ، طَاعِمَـةٍ، كاسيَـــه؟
فيا ليتَني، لم أخُـــنْ ثَورتـــي ولَـمْ أُطْـفِ نِيرانَـــها الحاميَـــه
.. فلسطيـــنُ.. لا تيأسِـــي، إننـــي سأُصلحُ في الشَّرق– أخطائيَـــه
لَئِنْ خنـتُ – فيما مضى– إنـــه يُوَبّخُـــني – اليومَ – وجدانيَـــه
.. فلسطيـــنُ.. لا تَقنطِـي، فالحِمَى سيُنصفُـه – اليومَ – أحراريَـــه
أنـا العربـــيُّ، الكريمُ الجُـــدود أنا النُّـــور، في الليلة الدّاجيَـــه
أنا الشعبُ ... والشعبُ لا يَنثَـني، أنا الحُـرُّ، إن حَـلَّـــتِ الداهيَه

إن النتيجة التي وصلت إليها فلسطين في المقطع قبل هذا هي أنها أخطأت بوضع ثقتها في الحكام بدل الشعوب، ولابد أن الشاعر قد استقرأ ضمير الشعب العربي، ونفذ إلى داخله؛ فالشعوب سمعت آلام فلسطين وعرفت أخطاءها حين استهانت بالأحداث وفوضت أمرها للحكام المستسلمين للدعة والخمول، بل اعتبر الشعب العربي توقيف الثورة (خيانة) وخطأ تاريخيا يجب إصلاحه. وهنا يقرر الشعب أن يعود إلى الطريق الصحيح فينتفض ويستند إلى ذاته وتاريخه ليتحرك أحراره مرة أخرى.

ويخصص المقطع الأخير للشاعر، فيقول:

أنا ابْـنُ الجزائرِ .. مِـنْ أُمَّـةٍ ... عَـلى دَمِـها، تَصعَـد الرَّابيَـــه
عَــلى ذَوْبِ أكبَــادها، تَرتقِــي ... وفَــوقَ جَماجِمِــها، ماضيَــه
.. فلسطيـــنُ..في صُلبِـنا، لُحمَـةٌ ... جِراحاتُـها، في الحَشَـى، ثاويَــه
عُروبتُـــنا، في ضميـــر البَقـــا ... وَشَـــائِـجُ، راسخـــةٌ، راسيَــه
فلسطيـــنُ.. في أرضِنا، بَعثُـــها ... ومِـنْ أرضِـنا تَزحَـف الحاميَــه
ومِن أرضنا.. نُقطَـــة الإنطِـــلاقِ ... وثورتُنا.. حَجَـــرُ الـزاويَـــه
..(مُحمدُ) أَبْـقَـى لَنـا، عِبْـــرةً ... منَ (الذئــبِ، والغنَــم القاصِيَــه)
وفي نَكبَــة العُــرْبِ، موعظـــةٌ ... -مَـــدى الدهر- للمُهَـــج الواعيَــه
فَمُـــدّوا يَـدًا، نَحْـــمِ أوطانَــنا ... ونُنْـــقِذْ حِمَــانا، من الهاويَـــه
فَـإنْ تَنصُــروا اللهَ ينصـــرْكمُ ... ويُنجِــزْ، أمانيكُـــمُ الغاليَـــه
ولَـــن يُخلِــفَ اللهُ ميعـــادَه ... ولا رَيْــبَ.. ساعتُــنا، آتيَـــه...

ومادامت فلسطين والعرب أيضا قد أدركا أن حركة الشعوب هي وحدها الحل والمنقذ، فإن النموذج الأقرب هو ثورته الجزائرية. بل إن الشعب الجزائري الذي صنعها بدمه وأشلائه يحمل جرح فلسطين العميق وقد ظل وفيا لمقدساته وعروبته، ولهذا يتصور الشاعر أن أرض الجزائر الثورية ستكون نقطة الانطلاق والزحف؛ إيمانا بوحدة المصير المقدسة واستيعابا لدروس النكبة، ولا يبقى إلا الثقة في نصر الله الذي وعد.

إن فكرة القداسة تهيمن على تفكير الشاعر وتسيير مكونات النص الفكرية وحتى الأسلوبية؛ فالمكان (فلسطين- القدس) مقدس، و(الجزائر) مقدسة بما يحمّلها من شحنة كثيفة من الانتماء والثورية الجهادية، و(الروابط القومية) مقدسة هي الأخرى لأنها جزء من عقيدة الوحدة التي كرسها مبدأ الاسلام (إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية). والشخصيات التي تحضر في النص هي الأخرى متجرة في التاريخ والثقافة بحيث أخذت بعدا مقدسا (موسى- يعرب- صهيون- محمد..) ولهذا تتفاعل داخل المكونات لتمنح النص أبعاده الثقافية ودلالات عميقة، فموسى يقضي على الخدع

والمؤامرات، ومحمد كشف سر النصر لأمته، بينما يبرز الصراع بين أبناء صهيون الطارئين الطامعين وأبناء يعرب المتجذرين في الأرض والتاريخ. لكن الشاعر ركز على تفاعل وظيفي بين ثنائيات (فلسطين والجزائر أو الاهمال والثورة) (الحكام العرب والشعب العربي) (الفعل الثوري والكلام) وبعضها يتضاد أو يتقابل فتنتج صورة الواقع العربي المرير، والوضع الفلسطيني الذي انتهى إلى الهاوية كما يقول.

ومن الصعب جدا تتبع النصوص التي التحم أصحابها بالقضية الفلطسنية فأحمد سحنون والربيع بوشامة ومبارك جلواح وصالح خبشاش وموسى الأحمدي والسائحي ومحمد بوزيدي وغيرهم.. لم يتخلف أحد عن التفاعل مع مأساة الشعب الفلسطيني. ويمكن أن نقرأ ما كتبه **صالح خرفي** (1932-1998) في قصيدته (الجرح المتجاوب) (*مجلة المعرفة، 1965 عدد 31، ص: 68*):

شَـبَـــــحٌ لاَحَ لي يُطَـوِّحُ في الْـــــــــــــــأُفْقِ تَشْـرَئِـبُّ يَـــــــداهُ
يا إِلَـهي متَى أعودُ؟ متى الفجْـــــــــــــــرُ؟ ولَيلِي على الأسَى ما مَداهُ؟
رَجَّـعَ الأُفْقُ صوتَـهُ ثمّ أَحْـــنَى يَسألُ الأرضَ: هل سمعتِ نِـداهُ؟
فَتَـعالَى مِـنَ الجزائِـرِ صَـوتٌ: أَمَـــلُ العائدين نَـحنُ فِـــــداهُ
مِنْ عُبـابِ المحيطِ في المغربِ الأقصـــــــــــى تَرامى إلى الخليجِ صداهُ
مَهبِـــط الوحيِ من حُثالَة صهيـــــــــونٍ، ورِجْـــسُ اليهودِ نحنُ فـداهُ
يَا أَخِي في خيـامِ غَزَّةَ في مَهْـــــــــمَهِ (سِينا), جُروحُنا تتنَـــــادَى
نَحْنُ قُرْبانُ مُدلِجٍ يَنْشُـدُ الفَجْـــــــــــرَ فَكُـــنَّا لَهُ مَنـــــارًا وَزَادَا
رَعْشَـةُ الضّوءِ في سِراجِـكَ يَاصَـــــــــاحِ أضَـاءتْ لَهُ الرُّبَى وَالوِهَـادَا
.. مُدَّ لـي كَفَّكَ الجريحَةَ يَاصَـــــــــــاحِ ودَعْـها تَضُمُّ كَفًّا جريحَـهْ
لَكَ في وَحشَـة الدُّروبِ أَنيـسٌ مَسَّـهُ الضَّيْمُ فامتطى الثأر روحَـهْ
لَوَّحَتْ لي مِنْ تحتِ أَخْمَصِ صهيـــــــونٍ سهولُ الجَليلِ تَشكو طَريحهْ
جَسَـــدٌ إن حَرمتَـــهُ يا إلهي مِن ثَراه، فَخُـــطَّ فيه ضريحَهْ

لقد تطورت رؤية الشاعر وتطورت أدواته الفنية. لم تعد الصورة الخطابية والنبرة العالية عماد الصياغة، رغم أن فكرة (الجزائر ملجأ وسند لفلسطين) ليست جديدة، إلا أن الشاعر تعمق في الموضوع درجة أكبر. وهكذا يتحول الفلسطيني المبعد المنفي واللاجيء إلى شبح من كثرة نسيانه ومن شدة آلامه، وهو لا يكاد يرى غائب تماما من جدول أعمال الحاضر، وصيح ويستنجد ويسأل عن الفجر والخلاص وموعد الرجوع إلى الوطن لكن لا أحد يسمعه بل إن صداه يرتد إليه في أفق ميت غير عابىء به، فيسأل الأرض التي يعود إليه منها صوت من الجزائر وهو وحده الذي

يجيب ويسمع من المحيط إلى الخليج: نحن نفدي أملك في العودة. وهي الفكرة التي تكبر في ذهن الشاعر، فالجزائر الجريحة التي خرجت مؤخرا من ثورتها تمد يدها إليه. لقد رأى الشاعر هذا الضوء الخافت واليد المتألمة فانطلق إلى نجدة يافا وغزة والجليل، وهو يسأل الله الذي حرمه أن يولد من ثرى القدس إلا يحرمه أن يدفن فيه...

لقد نبه احسن تليلاني في مقاله: القضية الفلسطينية في المسرح الجزائري، مقاربة تطبيقية (http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=12003) أن **أحمد توفيق المدني** (1899-1983) الذي نشر مسرحية تاريخية (حنبعل) سنة 1948 يحذر – *متأثرا بنكبة 1948*– فيها على لسان حنبعل ملك سوريا انطيخوس من خطر اليهود، فيقول له: " *لكن لا تنسوا يا مولاي أن خطرا هائلا يترقبكم من جهة الجنوب. فاليهود هناك يتربصون بكم الدوائر، وإنهم لأصحاب مطامع ليس لها حد، ثم إنهم لا ينسون تأديبك لمملكة يهوذا، وبطشك بجندها. فإذا ما بلغتهم أنباء هذه الهزيمة، بادروا إلى الانتقاض، ولم يتورعوا عن مهاجمة المملكة من خلف، فأرسلوا بفرقة القائد عصام التي تحرس بلاد الشام، لتضرب أوتادها بأرض يهوذا، واعلموا أنه لا راحة لبلاد الشام وبلاد العرب معا، إلا متى وقع التخلص من مملكة يهوذا، التي تقف حجر عثرة في الطريق، وتفصل البلاد شطرين*" (اتليلاني م س، وحنبعل، *ص: 32*)... كما يذكر اتليلاني أعمالا أخرى كمسرحيتي **محمد بودية** (1932-1973) الذي اغتالته المخابرات الاسرائيلية (الموساد) بالفرنسية بعنوان (الزيتونة) و (ولادات)، ومثل المسرحية بالدارجة التي قدمها **كاتب ياسين** (1929-1989) بعنوان (فلسطين المخدوعة) *« La Palestine trahie »* كتبها سنة 1977.

كان الروائي والشاعر الجزائري الشهير **نور الدين عبة** (1921-1996) قد ترك عدة أعمال عن فلسطين (مسرحية الفجر في القدس 1979 *l'aube à Jérusalem*) و(أشعاره: مونتجوي فلسطين 1970 *Montjoie Palestine*) و(كانت أمس صبرا وشاتيلا 1983 *C'était hier Sabra et Chatila*) و(صمت تل الزعتر عند هبوط الليل 1981 *Tell El Zaâtar s'est tu à la tombée du soir*) .... ولنقرأ منها:

أيها الإنسان، يجب أن يقال هذا، يجب أن يقال جيدا، يجب أن يقال جيدا في كل مكان !
لكن لا يقال جيدا في كل مكان فقط، بل يصرخ به ! يجب أن يصرخ بهذا ويعاد الصراخ به في كل مكان ! لكن لا يصرخ به ويعاد الصراخ به في كل مكان فقط، بل في كل المدن ومن الجميع !
يجب الصراخ بهذا وإعادة الصراخ به في كل المدن ومن الجميع في كل الساحات العامة !
يجب الصراخ بهذا وإعادة الصراخ به في كل المدن ومن الجميع، في كل الساحات العامة، كل يوم، حتى لا يحق لأحد أن يزعم أنه لم يعرف شيئا عن الدقائق الطويلة (الثقيلة) بصبرا وشاتيلا المصعوقة بالبرق، في نهاية درب التوسلات الصغير وممزقة، ممزقة، دون صفح، دون صفح !

أيها الانسان ذي القلب الذي يفتح كل دروب العالم، أيها الانسان، الأعلى، الأعظم من بين صراعاتي والأجمل من بين أغنياتي ! ومن أغنياتكم أنتم أيضا، أيها الفقراء، المهانون، المعذبون، المغتالون في دياجير كل البلدان. أيتها الشعوب المختنقة، المخنوقة، المضطهدة المرتعدة في الليالي الباردة، يا شعوب المشردين، المضروبة، التي تحلم بأقواس قزح وبالخبز الساخن ، أيتها الشعوب المنزوعة السلاح، المذلة، المنسية، التي تطالب بالحق في الاغفاء كجميع البشر، وفي الحصاد، وفي الكرامة، وفي الحلم، وفي الأمل ! أيتها الشعوب ضحايا قوات الهيمنة الهمجية، لتعلموا: لا حتمية في استعباد الانسان ! كل من يريد الانعتاق من قيوده يستطيع، بإرادته وشجاعته فقط.

لك أيها الانسان، معياري الأساسي، بصمتي، أنا أنا، ،أنا نحن، وعليك أنت أن تكون منقذهم ووسيطهم، عليك أن تشهد عن شكاوى هذه الشعوب التي ترفعها في غياهب السجون، وعن ضربات السياط التي تمزق لحمهم، عليك أنت أن تشهد أمام الحكماء، أمام الأقوياء عن كربهم وعن طيران العصافير الحرة في السماء الذي يسكنهم ! عليك أنت أن تعلن الحقيقة عن عذابهم وعن أملهم ! لكن أعلن الحقيقة بإنصاف، دون أن ترمي المهانة على طائفة كاملة، على شعب بأجمعه، على بلد كامل، لنعلنها بيقين الانسان المسكون بالانسان مع نية اتحاد الانسان في الانسان، مثلما نوحد القلب والروح في خشوع واحد في الصلاة ! اشهد على الدقيقة الطويلة التي ضربها البرق في أي مكان فيه إنسان جريح وكن بابه المفتوح للمنفى في أي مكان يطارد فيه، وفي كل مرة ينزف فيها في أي مكان، انتصب، اصرخ ولتزلزل صرختك الأرض.